

سورة الملك

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

مكية في قول الجميع، وتسمى الواقية والمنجية، وهي ثلاثون آية. روى الترمذي عن ابن عباس قال: ضرب رجل من أصحاب رسول الله ﷺ خبائه على قبر وهو لا يحسب أنه قبر، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها، فأثنى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ضربت خبائي على قبر، وأنا لا أحسب أنه قبر، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها؟ فقال رسول الله ﷺ: «هي المانعة هي المنجية، تنجيه من عذاب القبر» (١)، قال: حديث حسن غريب، وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «وددت أن ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ في قلب كل مؤمن» (٢) ذكره الثعلبي، وعن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: «إن سورة من كتاب الله ما هي إلا ثلاثون آية شفعت لرجل حتى أخرجته من النار يوم القيامة وأدخلته الجنة وهي سورة «تبارك» (٣)، أخرجه الترمذي بمعناه، وقال فيه: حديث حسن، وقال ابن مسعود: إذا وضع الميت في قبره فيؤتى من قبل رجله، فيقال: ليس لكم عليه سبيل، فإنه كان يقوم بسوره الملك على قدميه، ثم يؤتى من قبل رأسه، فيقول لسانه: ليس لكم عليه سبيل، إنه كان يقرأ بي سورة الملك ثم قال: هي المانعة من عذاب الله، وهي في التوراة سورة الملك من قرأها في ليلة فقد أكثر وأطيب، وروي أن من قرأها كل ليلة لم يضره الفتان (٤).

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ﴾ تفاعل من البركة وقد تقدم (٥)، وقال الحسن: تقديس، وقيل دام، فهو الدائم الذي لا أول لوجوده ولا آخر لدوامه ﴿الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ أي: ملك السموات والأرض في الدنيا والآخرة، وقال ابن عباس: بيده الملك يُعزَّزُ من يشاء ويُذلُّ من يشاء، ويُحيي ويُميت، ويعني

-
- (١) حسن غريب : وإنما يصح منه قوله : « المانعة » ، والترمذي (٢٨٩٠) في كتاب فضائل القرآن .
 (٢) ضعيف : الهيثمي (٧/ ١٣٧) ، عن ابن عباس - رضي الله عنه ، وعزاه للطبراني ، وقال : « وفيه إبراهيم بن الحكم بن أبان وهو ضعيف » .
 (٣) حسن : أبو داود (١٤٠٠) في الصلاة ، والترمذي (٢٨٩١) في فضائل القرآن ، وابن ماجه (٣٧٨٦) في الأدب ، وحسنه الألباني .
 (٤) حسن : ابن الضريس (٢٣٢) في فضائل القرآن موقوفاً . قلت : وهذا له حكم المرفوع ، فمثله لا يقال عن جهة الرأي ، ولا بد له من توقيف .
 (٥) عند الآية (٥٤) من سورة الاعراف :

ويفقر، ويعطي ويمنع^(١)، وقال محمد بن إسحاق: له ملك النبوة التي أعز بها من اتبعه وذل بها من خالفه، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من إنعام وانتقام.

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾

فيه مسألتان :

الأولى : قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ قيل: المعنى خلقكم للموت والحياة؛ يعني للموت في الدنيا، والحياة في الآخرة وقدم الموت على الحياة؛ لأن الموت إلى القهر أقرب؛ كما قدم البنات على البنين فقال: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنثًا﴾ [الشورى: ٤٩]، وقيل: قدمه لأنه أقدم؛ لأن الأشياء في الابتداء كانت في حكم الموت كالنطفة والتراب ونحوه، وقال قتادة: كان رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى أذل بني آدم بالموت، وجعل الدنيا دار حياة ثم دار موت، وجعل الآخرة دار جزاء ثم دار بقاء»^(٢)، وعن أبي الدرداء؛ أن النبي ﷺ قال: «لولا ثلاث ما طأ ابن آدم رأسه: الفقر، والمرض، والموت، وإنه مع ذلك لو تاب»^(٣).

المسألة الثانية : ﴿الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ قدم الموت على الحياة؛ لأن أقوى الناس داعياً إلى العمل من نصب موته بين عينيه؛ فقدم؛ لأنه فيما يرجع إلى الغرض المسوق له الآية أهم. قال العلماء: الموت ليس بعدم محض ولا فناء صرف، وإنما هو انقطاع تعلق الروح بالبدن ومفارقتها، وحيلولة بسببهما، وتبدل حال وانتقال من دار إلى دار، والحياة عكس ذلك، وحكي عن ابن عباس والكلبي ومقاتل: أن الموت والحياة جسمان، فجعل الموت في هيئة كبش لا يمر بشيء ولا يجد ريحه إلا مات، وخلق الحياة على صورة فرس أنثى بقاء - وهي التي كان جبريل والأنبياء عليهم السلام يركبونها - خطوتها مد البصر، فوق الحمار ودون البغل، لا تمر بشيء يجد ريحها إلا حيي، ولا تطأ على شيء إلا حيي، وهي التي أخذ السامري من أثرها فألقاه على العجل فحيي^(٤)، حكاه الثعلبي والقشيري عن ابن عباس، والماوردي معناه عن مقاتل والكلبي.

قلت: وفي التنزيل: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [النسجدة: ١١]، ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ﴾ [الأنفال: ٥٠] ثم ﴿تَوَفَّاهُ رُسُلًا﴾ [الأنعام: ٦١]، ثم قال: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]، فالوسائط ملائكة مكرمون - صلوات الله عليهم - وهو سبحانه المميت على الحقيقة،

(١) أذكره ابن الجوزي (٦/ ٥٠) في زاد المسير .

(٢) ضعيف : ابن أبي حاتم (١٢/ ٣٢٣) في تفسيره مرسلأ من طريق قتادة وفي إسناده خلود بن دعلج : سئى الحفظ، والوليد بن مسلم وهو مدلس .

وذكره الطبري من طريق معمر مقطوعأ على قتادة كما في تفسيره (٢٩/ ٣)، ومرفوعأ من طريق سعيد (٢٩/ ٣).

(٣) موضوع : وإنما هو من كلام سفيان بن عيينة كما في حلية الأولياء (٧/ ٢٧٧) لأبي نعيم .

(٤) ضعيف جداً : ولا سند صحيح له ، وانظر: البغوي (٨/ ١٧٣) في تفسيره .

وإنما يمثل الموت بالكبش في الآخرة ويذبح على الصراط؛ حسب ما ورد به الخبر الصحيح^(١)، وما ذكر عن ابن عباس يحتاج إلى خبر صحيح يقطع العذر، والله أعلم، وعن مقاتل أيضا: خلق الموت؛ يعني النطفة والعلقة والمضغة، وخلق الحياة؛ يعني خلق إنسانا ونفخ فيه الروح فصار إنسانا.

قلت: وهذا قول حسن؛ يدل عليه قوله تعالى: ﴿لِيَلْوَكُمُ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ وتقدم الكلام فيه في سورة الكهف، وقال السدي في قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَلْوَكُمُ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: أكثركم للموت ذكرا وأحسن استعدادا، ومنه أشد خوفا وحذرا^(٢)، وقال ابن عمر: تلا النبي ﷺ ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَلْوَكُمُ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ فقال: «أورع عن محارم الله وأسرع في طاعة الله»^(٣)، وقيل: معنى، ﴿لِيَلْوَكُمُ﴾ ليعاملكم معاملة المختبر؛ أي: ليلو العبد بموت من يعز عليه ليين صبره، وبالحياء ليين شكره، وقيل: خلق الله الموت للبعث والجزاء، وخلق الحياة للابتلاء، فاللام في ﴿لِيَلْوَكُمُ﴾ تتعلق بخلق الحياة لا بخلق الموت؛ ذكر الزجاج، وقال الفراء والزجاج أيضا: لم تقع البلوى على «أي» لأن فيما بين البلوى و«أي» إصمار فعل؛ كما تقول: بلوتكم لأنظر أيكم أطوع، ومثله قوله تعالى: ﴿سَلِّمُوا لَهُمْ بِدَلِكِ زَعِيمٍ﴾ [القلم: ٤٠] أي: سلمهم ثم انظر أيهم، فد ﴿أَيُّكُمْ﴾ رفع بالابتداء و﴿أَحْسَنُ﴾ خبر، والمعنى: ليلوكم فيعلم أو فينظر أيكم أحسن عملا، ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ في انتقامه ممن عصاه، ﴿الْفُورُ﴾ لمن تاب.

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَأَرْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُتُورٍ﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ أي: بعضها فوق بعض، والمتزق منها أطرافها؛ كذا روي عن ابن عباس^(٤)، و﴿طِبَاقًا﴾ نعت لـ ﴿سَبْعَ﴾ فهو وصف بالمصدر، وقيل: مصدر بمعنى المطابقة؛ أي: خلق سبع سموات وطبقها تطبيقا أو مطابقة، أو على طويقت طباقا، وقال سيبويه: نصب ﴿طِبَاقًا﴾ لأنه مفعول ثان.

قلت: فيكون ﴿خَلَقَ﴾ بمعنى جعل وصير، وطباق جمع طبق؛ مثل جمل وجمال، وقيل: جمع طبقة، وقال أبان بن تغلب: سمعت بعض الأعراب يذم رجلا فقال: شره طباق، وخيره غير باق، ويجوز في غير القرآن سبع سموات طباق؛ بالخفض على النعت لسموات، ونظيره: ﴿وَسَبْعَ سَبِيلَاتٍ حُضْرٍ﴾ [يوسف: ٤٦].

قوله تعالى: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ﴾ قراءة حمزة والكسائي: «من تَفَوَّتْ» بـ غير ألف مشددة^(٥)، وهي قراءة ابن مسعود وأصحابه، الباقون ﴿مِنْ تَفَوتٍ﴾ بألف، وهما لغتان، مثل التعاهد والتعهد، والتحمل والتحامل، والتظهر والتظاهر، وتصاغر وتصغر، وتضاعف وتضعف، وتباعد

(١) متفق عليه: البخاري (٤٧٣٠) في التفسير، ومسلم (٢٨٤٩ / ٤٠) في الجنة وصفة نعيمها، من حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - وفيه قصة ذبح الموت على الصراط.

(٢) حسن: البيهقي (٧ / ٤٠٨) في شعب الإيمان.

(٤) عزاه السيوطي (٦ / ٣٨٢) في الدر المنثور لعبد بن حميد.

(٥) قراءة متواترة: تقريب النشر (ص ١٨٢).

(٣) ضعيف: وقد سبق تضعيفه.

وتبعد؛ كله بمعنى، واختار أبو عبيد: ﴿مِنْ تَفَاوُتٍ﴾ واحتج بحديث عبدالرحمن بن أبي بكر: «أمثلي يتفوت عليه في بناته»^(١) النحاس: وهذا أمير مردود على أبي عبيد، لأن يتفوت يفتات: بهم، ﴿وَتَفَاوُتٍ﴾ في الآية أشبه، كما يقال: تباين يقال: تفاوت الأمر: إذا تباين وتباعد؛ أي: فات بعضها بعضاً، إلا ترى أن قبله قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾، والمعنى: ما ترى في خلق الرحمن من اعوجاج ولا تناقض ولا تباين - بل هي مستقيمة مستوية ذالة على خالقها - وإن اختلفت صورته وصفاته، وقيل: المراد بذلك السموات خاصة؛ أي: ما ترى في خلق السموات من عيب، وأصله من الفوت، وهو أن يفوت شيء شيئاً فيقع الخلل لقلته استوائها؛ يدل عليه قول ابن عباس رضي الله عنه: من تفرق، وقال أبو عبيدة: يقال: فتوت الشيء أي: فات، ثم أمر بأن ينظروا في خلقه ليعتبروا به فيبتفكروا في قدرته: فقال: ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ أي: أردد طرفك إلى السماء، ويقال: قلب البصر في السماء، ويقال: اجهد بالنظر إلى السماء، والمعنى متقارب، وإنما قال: ﴿فَارْجِعِ﴾ بالفاء وليس قبله فعل مذكور؛ لأنه قال: ﴿مَا تَرَى﴾، والمعنى أنظر ثم أرجع البصر هل ترى من فطور؛ قاله قتادة^(٢)، والفطور: الشقوق، عن مجاهد^(٣) والضحاك، وقال قتادة: من خلل^(٤)، السدي: من خروق^(٥)، ابن عباس: من وهن^(٦)، وأصله من التفطر والانفطار وهو الإنشقاق، قال الشاعر:

بَنَى لَكُمْ بِلَا عَمَدٍ سَمَاءَ
وَزَيَّنَّهَا فَمَا فِيهَا فُطُورُ

وقال آخر:

شَقَقْتُ الْقَلْبَ ثُمَّ تَرَرْتُ فِيهِ
تَمَلَّغَلْ حَيْثُ لَمْ يَبْلُغْ شَرَابٌ
هَوَاكُ فَلَيْمٌ فَالْتَأَمَ الْفُطُورُ
وَلَا سَكْرٌ وَلَمْ يَبْلُغْ سُورُ

﴿ثُمَّ أَرْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾^(٥)

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ ﴿كَرَّتَيْنِ﴾ في موضع المصدر؛ لأن معناه رجعتين، أي: مرة بعد أخرى، وإنما أمر بالنظر مرتين؛ لأن الإنسان إذا نظر في الشيء مرة لا يرى عيبه ما لم ينظر إليه مرة أخرى، فأخبر تعالى أنه وإن نظر في السماء مرتين لا يرى فيها عيباً، بل يتحير بالنظر إليها؛ فذلك قوله تعالى: ﴿يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا﴾ أي: خاشعاً صاغراً متباعداً عن أن يرى شيئاً من ذلك؛ يقال: خسأت الكلب، أي: أبعدته وطردته، وخسأ الكلب بنفسه، يتعدى ولا يتعدى، وانخسأ الكلب أيضاً، وخسأ بصره خساً وخسواً أي: سدر، ومنه قوله تعالى: ﴿يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا﴾

(١) بل الرواية: (ومثلي يفتات عليه) وهو صحيح كما عند مالك في الموطأ حديث (١٥) في الطلاق باب (٥)

والبيهقي (١١٢ / ٧) في السنن الكبرى .

(٢) صحيح إليه: الطبري (٢٩ / ٥) .

(٣) كذا عند ابن كثير (٨ / ١٤١) في تفسيره .

(٤) صحيح إلى قتادة: الطبري (٢٩ / ٤) في تفسيره .

(٥) فتح القدير (٧ / ٢٦٣) للشوكاني .

(٦) ضعيف جداً: الطبري (٢٩ / ٤) من طريق العوفيين .

وقال ابن عباس: الخناسى الذي لم ير ما يهوى، ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ أي: قد بلغ الغاية في الإعياء، فهو بمعنى فاعل؛ من الحسور الذي هو الإعياء، ويجوز أن يكون مفعولا من حسره بعد الشيء، وهو معنى قول ابن عباس، ومنه قول الشاعر:

مَنْ مَدَّ طَرَفًا إِلَى مَا فَوْقَ غَايَتِهِ ارْتَدَّ خَسَانٌ مِنْهُ الطَّرْفُ قَدْ حَسِرَا

يقال: قد حسر بصره يحسر حسورا، أي: كل وانقطع نظره من طول مدى وما أشبه ذلك، فهو

حسير ومحسور أيضا، قال:

نَظَرْتُ إِلَيْهَا بِالْمُحْصَبِ مِنْ مَنِيٍّ فَعَادَ إِلَيَّ الطَّرْفُ وَهُوَ حَسِيرٌ

وقال آخر يصف ناقة:

فَشَطَّرَهَا نَظْرُ الْعَيْنَيْنِ مَحْسُورٌ

نصب «شطرها» على الظرف، أي: نحوها، وقال آخر:

وَالخَيْلُ شُعْتُ مَا تَزَالُ جِيَادَهَا حَسْرَى تُغَادِرُ بِالطَّرِيقِ سَخَالَهَا

وقيل: إنه النادم، ومنه قول الشاعر:

مَا أَنَا الْيَوْمَ عَلَى شَيْءٍ خَلَا يَا بَنَّةَ الْقَيْنِ تَوَكَّلِي بِحَسْرٍ

المراد بـ ﴿كَرَّتَيْنِ﴾ ها هنا التكثر، والدليل على ذلك: ﴿يَقْلِبُ إِلَيْكَ الْبَصَرَ خَاسِنًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾

وذلك دليل على كثرة النظر.

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾^(١)
وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ جمع مصباح وهو السراج، وتسمى الكواكب مصابيح لإضاءتها، ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ أي: جعلناها شهباء؛ فحذف المضاف، دليله ﴿إِلَّا مَنْ خَظَفَ الْخُظْفَةَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصفوات: ١٠]، وعلى هذا فالمصابيح لا تزول ولا يرجم بها، وقيل: إن الضمير راجع إلى المصابيح على أن الرجم من أنفس الكواكب، ولا يسقط الكوكب نفسه إنما ينفصل منه شيء يرجم به من غير أن ينقص ضوءه ولا صورته، قاله أبو علي جوابا لمن قال: كيف تكون زينة وهي رجوم لا تبقى، قال المهدي: وهذا على أن يكون الاستراق من موضع الكواكب، والتقدير الأول على أن يكون الاستراق من الهوى الذي هو دون موضع الكواكب، القشيري: وأمثلة من قول أبي علي أن نقول: هي زينة قبل أن يرجم بها الشياطين، والرجوم جمع رجم؛ وهو مصدر سمي به ما يرجم به. قال قتادة: خلق الله تعالى النجوم لثلاث: زينة للسماء، ورجوما للشياطين، وعلامات يهتدى بها في البر والبحر والأوقات، فمن تأول فيها غير ذلك فقد تكلف ما لا علم له به، وتعدى وظلم^(١)، وقال محمد بن كعب: والله ما لأحد من أهل الأرض في السماء نجم، ولكنهم يتخذون الكهانة سبيلا ويتخذون النجوم علة^(٢)، ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ أي: أعتدنا للشياطين أشد الحريق؛ يقال: سعرت النار فهي مسعورة وسعير؛ مثل مقتولة وقتيل، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ

(١) صحيح: الطبري (٢٩/٥) في تفسيره.

(٢) وهذا معنى صحيح.

وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١﴾

﴿ إِذَا أُنْفُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ إِذَا أُنْفُوا فِيهَا ﴾ يعني الكفار، ﴿ سَمِعُوا لَهَا شَهيقًا ﴾ أي: صوتًا ، قال ابن عباس: الشهيق لجهنم عند إلقاء الكفار فيها؛ تشهق إليهم شهقة البعلة للشعير، ثم تفرز زفرة لا يبقى أحد إلا خاف (١)، وقيل: الشهيق من الكفار عند إلقاءهم في النار، قاله عطاء، والشهيق في الصدر، والزفير في الحلق، وقد مضى في سورة «هود» ، ﴿ وَهِيَ تَفُورُ ﴾ أي: تغلي؛ ومنه قول حسان:

تَرَكْتُمْ قَدْرَكُمْ لَا شَيْءَ فِيهَا وَقَدِرُ الْقَوْمِ حَامِيَةٌ تَفُورُ

قال مجاهد: تفور بهم كما يفور الحب القليل في الماء الكثير (٢)، وقال ابن عباس: تغلي بهم على المرجل (٣)؛ وهذا من شدة لهب النار من شدة الغضب؛ كما تقول: فلان يفور غيظًا.

﴿ تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُنقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلْزَيْتُكُمْ نَذِيرٌ ﴿٣﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٤﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٥﴾ فَأَعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحِقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ يعني تقطع ويفصل بعضها من بعض؛ قاله سعيد بن جبير (٤)، وقال ابن عباس والضحاك وابن زيد: تفرق (٥)، ﴿ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ من شدة الغيظ على أعداء الله تعالى، وقيل: ﴿ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ من الغليان، وأصل ﴿ تَمَيِّزُ ﴾ تمييز، ﴿ كُلَّمَا أُنقِيَ فِيهَا فَوْجٌ ﴾ أي: جماعة من الكفار، ﴿ سَأَلْتَهُمْ خَزَنَتُهَا ﴾ على جهة التوبيخ والتقريع: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ أي: رسول في الدنيا ينذركم هذا اليوم حتى تحذروا .

قوله تعالى: ﴿ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ ﴾ أنذرنا وخوفنا، ﴿ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ أي: على السنتكم، ﴿ إِنْ أَنْتُمْ ﴾ يا معشر الرسل، ﴿ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴾ اعترفوا بتكذيب الرسل، ثم اعترفوا بجهلهم فقالوا وهم في النار: ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ ﴾ من النذر - يعني الرسل - ما جازوا به ﴿ أَوْ نَعْقِلُ ﴾ عنهم، قال ابن عباس: لو كنا نسمع الهدى أو نعقله، أو لو كنا نسمع سماع من يعي ويفكر، أو نعقل عقل من يميز وينظر (٦)، ودل هذا على أن الكافر لم يعط من العقل شيئًا، وقد مضى في الطور بيانه والحمد لله، ﴿ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ يعني ما كنا من أهل النار، وعن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لقد ندم الفاجر يوم القيامة قالوا: لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب

(١) النكت والعيون (٤/ ٣٠٠) للماوردي - رحمه الله .

(٢) ذكره البغوي (٨/ ١٧٧) في تفسيره .

(٣) إنما نقله الطبري (٦/ ٢٩) عن مجاهد - رحمه الله .

(٤) انظر النكت والعيون (٤/ ٣٠٠) للماوردي .

(٥) ضعيف إلى ابن عباس: للانقطاع بين علي بن أبي طلحة وبينه كما رواه الطبري وبقي الأثار عنده في التفسير

(٦/ ٧-٦) .

(٦) ذكره البغوي (٨/ ٧٧) بلا إسناد .

السعير فقال الله تعالى: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ﴾^(١)، أي: بتكذيبهم الرسل، والذنب هنا بمعنى الجمع؛ لأن فيه معنى الفعل، يقال: خرج عطاء الناس أي: أعطيتهم، ﴿فَسُحِقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ أي: فبعدا لهم من رحمة الله، وقال سعيد بن جبير وأبو صالح: هو واد في جهنم يقال له: السحق^(٢)، وقرأ الكسائي وأبو جعفر: «فَسُحِقًا»^(٣) بضم الحاء، ورويت عن علي، الباقر بإسكانها، وهما لغتان مثل السحت والرعب والزجاج؛ وهو منصوب على المصدر؛ أي: أسحقهم الله سحقاً؛ أي: باعدهم بعداً، قال امرؤ القيس:

يَجُولُ بِأَطْرَافِ الْبِلَادِ مُعْرَبًا وَتَسْحَقُهُ رِيحُ الصَّبَا كُلَّ مَسْحَقٍ

وقال أبو علي: القياس إسحاقاً؛ فجاء المصدر على الحذف؛ كما قيل:

وإِنَّ أَمْلَكَ فَذَلِكَ كَانَ قَدْرِي

أي: تقديري، وقيل: إن قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَنْتُمْ لِأَلْفِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ من قول خزنة جهنم لاهلها،

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ نظيره: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ وقد مضى

الكلام فيه، أي: يخافون الله ويخافون عذابه الذي هو بالغيب؛ وهو عذاب يوم القيامة، ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وهو الجنة.

﴿وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ
الْخَبِيرُ

قوله تعالى: ﴿وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ﴾ اللفظ لفظ الامر والمراد به الخبير؛ يعني إن أخفيتم كلامكم في أمر محمد ﷺ أو جهرتم به^(٤) ﴿فَإِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ يعني بما في القلوب من الخير والشر، ابن عباس: نزلت في المشركين كانوا ينالون من النبي ﷺ فيخبره جبريل عليه السلام؛ فقال بعضهم لبعض: أسروا قولكم كي لا يسمع رب محمد؛ فنزلت: ﴿وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ﴾، يعني: أسروا قولكم في أمر محمد ﷺ، وقيل: في سائر الأقوال؛ أو اجهروا به: أعلنوه، ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ذات الصدور ما فيها؛ كما يسمى ولد المرأة وهو جنين: «ذا بطنها»، ثم قال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ يعني ألا يعلم السر من خلق السر، يقول أنا خلقت السر في القلب أفلا أكون عالماً بما في قلوب العباد، وقال أهل المعاني: إن شئت جعلت ﴿مَنْ﴾ اسماً للمخلوق جل وعز؛ ويكون المعنى: ألا يعلم الخالق خلقه، وإن شئت جعلته اسماً للمخلوق، والمعنى: ألا يعلم الله من خلق، ولا بد أن يكون الخالق عالماً بما خلقه وما يخلقه. قال ابن المسيب: بينما رجل واقف بالليل في شجر كثير وقد عصفت الريح فوق في نفس الرجل: أتري الله يعلم ما يسقط من هذا الورق؟ فتودي من جانب

(١) لم أجده إلا عند ابن عادل (١٥/ ٣٧٥) في الباب نقلاً عن القرطبي.

(٢) انظر: تفسير البغوي (٨/ ١٧٧).

(٣) قراءة متواترة: الإقناع (٢/ ٧٨٩).

(٤) ضعيف: ذكره الواحدي (ص ٣٧٧) معلقاً بلا إسناد في أسباب النزول.

الغيضة بصوت عظيم: ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير. وقال الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني: من أسماء صفات الذات ما هو للعلم؛ منها «العليم» ومعناه تعميم جميع المعلومات، ومنها: ﴿النَّخِسَاءُ﴾ ويختص بأن يعلم ما يكون قبل أن يكون، ومنها «الحكيم» ويختص بأن يعلم دقائق الأوصاف، ومنها «الشهيد» ويختص بأن يعلم الغائب والحاضر ومعناه: ألا يغيب عنه شيء، ومنها الحافظ ويختص بأنه لا ينسى، ومنها «المحصي» ويختص بأنه لا تشغله الكثرة عن العلم؛ مثل ضوء النور واشتداد الريح وتساقط الأوراق؛ فيعلم عند ذلك أجزاء الحركات في كل ورقة، وكيف لا يعلم وهو الذي يخلق! وقد قال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾^(١) قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا﴾ أي: سهلة تستقرون عليها، والذللول المتقاد الذي يدل لك والمصدر الذل وهو اللين والانقياد، أي: لم يجعل الأرض بحيث يتمتع المشي فيها بالحزونة والغلظة، وقيل: أي: ثبتها بالجبال لئلا تزول بأهلها؛ ولو كانت تتكفا متماثلة لما كانت منقادة لنا، وقيل: أشار إلى التمكن من الزرع والغرس وشتق العيون والأنهار وحفر الآبار، ﴿فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ هو أمر بإباحة، وفيه إظهار الامتنان، وقيل: هو خبر بلفظ الأمر؛ أي: لكي تمشوا في أطرافها ونواحيها وأكامها وجبالها، وقال ابن عباس وقتادة وبشير بن كعب: ﴿فِي مَنَاكِبِهَا﴾ في جبالها، وروي أن بشير بن كعب كانت له سرية فقال لها: إن أخبرتني ما مناكب الأرض فأت حرة؟ فقالت: مناكبها جبالها، فصارت حرة، فأزاد أن يتزوجها فسأل أبا الدرداء فقال: دع ما يريك إلى ما لا يريك^(٢)، مجاهد: في أطرافها^(٣)، وعنه أيضا: في طرفها وفجاجها^(٤)، وقاله السدي والحسن، وقال الكلبي: في جوانبها^(٥)، ومنكبا الرجل: جانباه، وأصل المنكب الجانب؛ ومنه منكب الرجل، والريح النكباء، وتكب فلان عن فلان، يقول: امشوا حيث أردتم فقد جعلتها لكم ذلولا لا تمتنع، وحكى قتادة عن أبي الجلد: أن الأرض أربعة وعشرون ألف فرسخ؛ فللسودان اثنا عشر ألفا، وللروم ثمانية آلاف، وللفرس ثلاثة آلاف، وللعرب ألف^(٥)، ﴿وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ أي: مما أحله لكم؛ قاله الحسن، وقيل: مما أتته لكم، ﴿وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ المرجع، وقيل: معناه أن الذي خلق السماء لا تفاوت فيها، والأرض ذلولا قادر على أن ينشركم.

﴿عَٰمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَآءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَوْرُؤٌ﴾

- (١) ضعيف: فيه عمرو بن حكّام الأزدي، متروك الحديث، وليس بالقوى، وانظر: الجرح والتعديل (٦/ ٢٢٧) وابن كثير (٨/ ١٤٣) في تفسيره.
 وذكره الطبري (٩/ ٢٩) في تفسيره مقطوعاً على قتادة ومن طريق بشير بن كعب أيضاً.
 (٢) صحیح إلى مجاهد: الطبري (٩/ ٢٩) في تفسيره.
 (٣، ٤) البغوي (٨/ ١٧٨) في تفسيره.
 (٥) وقد سبق تضييفه أكثر من مرة، ورواه الماوردي (٤/ ٣٠١) في النكت والعيون.

قوله تعالى: ﴿أَأَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ﴾ قال ابن عباس: أأمتتم عذاب من في السماء إن عصيتموه^(١)، وقيل: تقديره أأمتتم من في السماء قدرته وسلطانه وعرشه ومملكته، وخص السماء وإن عم ملكه تنبيها على أن الإله الذي تفذ قدرته في السماء لا من يعظمونه في الأرض، وقيل: هو إشارة إلى الملائكة، وقيل: إلى جبريل وهو الملك الموكل بالعذاب^(٢).

قلت: ويحتمل أن يكون المعنى: أأمتتم خالق من في السماء أن يخسف بكم الأرض كما خسفها بقارون، ﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ أي: تذهب وتجيء، والمور: الاضطراب بالذهاب والمجيء، قال الشاعر:
رَمِينُ فَأَقْصِدَنَّ الْقُلُوبَ وَلَنْ تَرَى دَمًا مَاتِرًا إِلَّا جَرَى فِي الْحَيَارِمِ

جمع حيزوم وهو وسط الصدر، وإذا خسف بإنسان دارت به الأرض فهو المور، وقال المحققون: أمتتم من فوق السماء؛ كقوله: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [التوبة: ٢٢] أي: فوقها لا بالماسة والتحيز لكن بالقهر والتدبير، وقيل: معناه أمتتم من على السماء؛ كقوله تعالى: ﴿وَأَصْلَبْنَاكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] أي: عليها، ومعناه أنه مديرها ومالكها؛ كما يقال: فلان على العراق والحجاز؛ أي: وإليها وأميرها، والأخبار في هذا الباب كثيرة صحيحة منتشرة، مشيرة إلى العلو؛ لا يدفعا إلا ملحد أو جاهل معاند، والمراد بها توقيره وتنزيهه عن السفلى والتحت، ووصفه بالعلو والعظمة لا بالأماكن والجهات والحدود؛ لأنها صفات الأجسام، وإنما ترفع الأيدي بالدعاء إلى السماء؛ لأن السماء مهبط الوحي، ومنزل القطر، ومحل القدس، ومعدن المطهرين من الملائكة، وإليها ترفع أعمال العباد، وفوقها عرشه وجنته؛ كما جعل الله الكعبة قبلة للدعاء والصلاة، ولأنه خلق الأمانة وهو غير محتاج إليها، وكان في أزله قبل خلق المكان والزمان، ولا مكان له ولا زمان، وهو الآن على ما عليه كان، وقرأ قنبل عن ابن كثير: «النشور وأمتتم»^(٣) بقلب الهمزة الأولى واوا وتخفيف الثانية، وقرأ الكوفيون والبصريون وأهل الشام سوى أبي عمرو وهشام بالتخفيف في الهمزتين، وخفف الباقيون، وقد تقدم جميعه.

﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ أي: حجارة من السماء كما أرسلها على قوم لوط وأصحاب الفيل، وقيل: ريح فيها حجارة وحصباء، وقيل: سحب فيه حجارة، ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ أي: إنذاري، وقيل: النذير بمعنى المنذر، يعني محمدا ﷺ فستعلمون صدقه وعاقبة تكذيبكم.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾

(١) البغوي (٨ / ١٧٨) في تفسيره .

(٢) وما عليه السلف هو إثبات صفة العلو لله تعالى، وانظر الصواعق المرسله (١ / ٣٧٩)، وطريق الهجرتين

(ص ٧٨)، ومعارج القبول (١ / ٧٧، ٧٨) .

(٣) انظر: الإقناع (٢ / ٧٨٩)

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني: كفار الأمم؛ كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين وأصحاب الرس وقوم فرعون ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: إنكاري وقد تقدم، وأثبت ورش الياء في «نذيري»، ونكيري» في الوصل^(١)، وأثبتها يعقوب في الحاليين^(٢)، وحذف الباقيون اتباعاً للمصنف.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَّتْ وَيَقْبِضْنَ مَا يُسْكِنُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَّتْ﴾ أي: كما ذلل الأرض للآدمي ذلل الهواء للطيور، و﴿صَفَّتْ﴾ أي: باسطات أجنحتهن في الجو عند طيرانها؛ لأنهن إذا بسطنها صفتن قوائمها صفا، و﴿يَقْبِضْنَ﴾ أي: يضرين بها جنوبهن، قال أبو جعفر النحاس: يقال للطائر إذا بسط جناحيه: صاف، وإذا ضمهما فأصابا جنبه: قابض؛ لأنه يقبضهما، قال أبو خراش:

يُبَادِرُ جُنْحَ اللَّيْلِ فَهُوَ مُوَاتِلٌ يَحْتُ الْجَنَاحَ بِالتَّبْسِطِ وَالْقَبْضِ

وقيل: ويقبض أجنحتهن بعد بسطها إذا وقفن من الطيران، وهو معطوف على ﴿صَفَّتْ﴾ عطف المضارع على اسم الفاعل؛ كما عطف اسم الفاعل على المضارع في قول الشاعر:

بَاتَ يَعْشِيهَا بِعَضْبٍ بَاتِرٍ يَقْصِدُ فِي أَسْوَقِهَا وَجَائِرٍ

﴿مَا يُسْكِنُنَّ﴾ أي: ما يسكن الطير في الجو وهي تطير إلا الله عز وجل، ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾.

﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِّنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكُمْ﴾ قال ابن عباس: حذب ومنعة لكم^(٣)، ﴿يَنْصُرُكُمْ مِّنْ دُونِ الرَّحْمَنِ﴾ فيدفع عنكم ما أراد بكم إن عصيتموه، ولفظ الجند يوحد؛ ولهذا قال: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكُمْ﴾ وهو استفهام إنكار؛ أي: لا جند لكم يدفع عنكم عذاب الله ﴿مِّنْ دُونِ الرَّحْمَنِ﴾ أي: من سوى الرحمن، ﴿إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ من الشياطين؛ تغرهم بأن لا عذاب ولا حساب.

﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَّجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ﴾ أي: يعطيكم منافع الدنيا، وقيل: المطر من آلهتكم، ﴿إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾ يعني الله تعالى رزقه، ﴿بَلْ لَّجُوا﴾ أي: تمادوا وأصرُوا، ﴿فِي عُتُوٍّ﴾ طغيان ﴿وَنُفُورٍ﴾ عن الحق.

﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾ ضرب الله مثلا للمؤمن والكافر ﴿مُكِبًّا﴾ أي: منكسا رأسه لا ينظر أمامه ولا يمينه ولا شماله؛ فهو لا يأمن من العثور والانكباب على وجهه، كمن يمشي

(١)، (٢) قراءتان متواترتان: وكلاهما عند ابن الجوزي (ص ١٨٢) في تقريب النشر.

(٣) ذكره البغوي (٨ / ١٧٩) في تفسيره.

متوخياً معتدلاً ناظراً ما بين يديه وعن يمينه وعن شماله. قال ابن عباس: هذا في الدنيا (١)؛ ويجوز أن يريد به الأعمى الذي لا يهتدي إلى الطريق فيعتسف (٢)؛ فلا يزال ينكب على وجهه، وأنه ليس كالرجل السوي الصحيح البصير الماشي في الطريق المهتدى له، وقال قتادة: هو الكافر أكب على معاصي الله في الدنيا فحشوه الله يوم القيامة على وجهه (٣)، وقال ابن عباس والكلبي: عنى بالذي يمشى مكبا على وجهه: أبا جهل، وبالذي يمشي سوياً: رسول الله ﷺ، وقيل: أبو بكر، وقيل: حمزة، وقيل: عمار بن ياسر؛ قاله عكرمة (٤)، وقيل: هو عام في الكافر والمؤمن؛ أي: أن الكافر لا يدري أعلى حق هو أم على باطل، أي: أهذا الكافر أهدى أو المسلم الذي يمشي سوياً معتدلاً يبصر للطريق وهو ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وهو الإسلام، ويقال: أكب الرجل على وجهه؛ فيما لا يتعدى بالالف، فإذا تعدى قيل: كبه الله لوجهه؛ بغير الف.

﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ ٥٥

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ﴾ أمر نبيه أن يعرفهم قبح شركهم مع اعترافهم بأن الله خلقهم، ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ يعني: القلوب، ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي: لا تشكرون هذه النعم، ولا توحدون الله تعالى، تقولون: قلما أفعل كذا؛ أي: لا أفعله.

﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ ٥٦ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٥٧

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: خلقكم في الأرض؛ قاله ابن عباس، وقيل: نشركم فيها ورفقكم على ظهرها؛ قاله ابن شجرة، ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ حتى يجازي كلا بعمله، ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: متى يوم القيامة؟ ومتى هذا العذاب الذي تعدوننا به؟ وهذا استهزاء منهم، وقد تقدم.

﴿ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ ٥٨

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: قل لهم يا محمد: علم وقت قيام الساعة عند الله، فلا يعلمه غيره، نظيره: ﴿قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عَبْدُ رَبِّي﴾ [الاعراف: ١٨٧] الآية، ﴿وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أي: مخوف ومعلم لكم.

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهٖ تَدْعُونَ ﴾ ٥٩

(١) النكت والعيون (٤/ ٣٠٣) للماوردي.

(٢) يعتسف: في اللسان: يقطع الطريق دون صواب توخاه. اللسان: عسف.

(٣) صحيح إلى قتادة: الطبري (٢٩/ ١١، ١٢).

(٤) ذكره الماوردي (٤/ ٣٠٣) في النكت والعيون، وسنده ضعيف.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً﴾ مصدر بمعنى مزدلفا، أي: قريبا؛ قاله مجاهد . الحسن: عيانا (١)، وأكثر المفسرين على أن المعنى: فلما رأوه يعني العذاب، وهو عذاب الآخرة، وقال مجاهد: يعني عذاب بلور (٢)، وقيل: أي: رأوا ما وعدوا من الحشر قريبا منهم، ودل عليه ﴿تُحْفَرُونَ﴾، وقال ابن عباس: لما رأوا عملهم السيئ قريبا، ﴿سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: فعل بها السوء، وقال الزجاج: تبين فيها السوء، أي: ساءهم ذلك العذاب وظهر على وجوههم سمة تدل على كفرهم؛ كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌُ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌُ﴾ [آل عمران: ٤٦]، وقرأ نافع وابن محيصن وابن عامر والكسائي: «سئت» بإشمام (٣) الضم، وكسر الباقون بغير إشمام طليبا للخفضة، ومن ضم لاحظ الأصل، ﴿وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ﴾ قال الفراء: ﴿تَدْعُونَ﴾ تفتعلون من الدعاء وهو قول أكثر العلماء أي: تتمنون وتسالون، وقال ابن عباس: تكذبون (٤)؛ وتأويله: هذا الذي كنتم من أجله تدعون الإباطيل والأحاديث؛ قاله الزجاج، وقرأ العامة «دُعُونَ» بالشد، وتأويله ما ذكرناه، وقرأ قتادة وابن أبي إسحاق والضحاك ويعقوب: «تَدْعُونَ» مخففة (٥)، قال قتادة: هو قولهم: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْ لَنَا قَطْنَا﴾ [ص: ١٦] (٦)، وقال الضحاك: هو قولهم: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَسْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَةَ مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الأنفال: ٣٢] الآية (٧)، وقال أبو العباس: ﴿تَدْعُونَ﴾ تستعملون؛ يقال: دعوت بكذا: إذا طلبته؛ وادعيت افتعلت منه . النحاس: «تَدْعُونَ» بمعنى واحد؛ كما يقال: قدر وأقدر، وعدى واعتدى؛ إلا أن في «افتعل» معنى شيء بعد شيء، و«فعل» يقع على القليل والكثير.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي أَلَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي أَلَّهُ﴾ أي: قل: لهم يا محمد - يزيد مشركي مكة، وكانوا يتمنون موت محمد ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ تَتَّبِعُهُ بِهِ رَيْبُ الْمُنُونِ﴾ [الطور: ٣٠]: أرايتم إن متنا أو رحمنا فأخرت آجالنا فمن يجيركم من عذاب الله؛ فلا حاجة بكم إلى التريص بنا ولا إلى استعجال قيام الساعة، وأسكن الباء في «أهْلَكْنِي» (٨) ابن محيصن والمسيبي وشيبة والأعمش وحمزة، وفتحها الباقون، وكلهم فتح الباء في «وَمَنْ مَعِيَ» إلا أهل الكوفة فلهم سكنوها (٩)، وفتحها حفص كالجماعة.

﴿قُلْ هُوَ أَرْحَمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾

(١) ذكره الماوردي (٣٠٣/٤) في النكت والعيون .

(٢) صحيح إلى الحسن : الطبري (١٣/٢٩) في تفسيره .

(٣) ابن الجوزي التبري في تفسيره .

(٤) لم يجد في نسخة أبي حنيفة (٢٧١/٧) في فتح القدير ، والبهوي (٨/ ١٨٠) في تفسيره .

(٥) قراءة متواترة : تقريب النشر (ص١٨٢) .

(٦ ، ٧) انظر : فتح القدير (٧/ ٢٧١) .

(٨ ، ٩) إفرادتان متواترتان : انظر : تقريب النشر (ص١٨٢) .

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسْتَعْلَمُونَ﴾ قرأ الكسائي بالياء على الخبر^(١)، ورواه عن علي، الباقر بن الباقون بالناء على الخطاب، وهو تهديد لهم، ويقال: لم أخرج مفعول ﴿أَمَنَّا﴾ وقدم مفعول ﴿تَوَكَّلْنَا﴾؟ فيقال: لوقوع ﴿أَمَنَّا﴾ تعريضا بالكافرين حين ورد عقيب ذكرهم، كأنه قيل: أَمَنَّا ولم نكفر كما كفرتم، ثم قال: ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ خصوصا لم نتكل على ما أنتم متكولون عليه من رجالكم وأموالكم؛ قاله الزمخشري.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ يا معشر قريش ﴿إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾ أي: غائرا ذاهبا في الأرض لا تناله الدلاء، وكان ماؤهم من بثرين: بثر زمزم، وبثر ميمون، ﴿فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾ أي: جار؛ قاله قتادة والضحاك^(٢)، فلا بد لهم من أن يقولوا: لا يأتينا به إلا الله؛ فقل لهم: لم تشركون به من لا يقدر على أن يأتيكم؟ يقال: غار الماء يغور غورا؛ أي: نضب، والغور: الغائر؛ وصف بالمصدر للمبالغة؛ كما تقول: رجل عدل ورضا، وقد مضى في سورة الكهف ومضى القول في المعنى في سورة المؤمنون والحمد لله، وعن ابن عباس: ﴿بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾ أي: ظاهر تراه العيون^(٣)؛ فهو مفعول، وقيل: هو من معن الماء، أي: كثر؛ فهو على هذا فعيل، وعن ابن عباس أيضا: أن المعنى فمن يأتيكم بماء عذب؟ والله أعلم.

(١) قراءة متواترة: انظر تقريب النشر (ص ١٨٢).

(٢) صحيح إلى قتادة: منقطع إلى الضحَّاك: الطبري (٢٩/ ١٥) في تفسيره.

(٣) ذكره البغوي (٨/ ١٨١) في تفسيره من طريق عطاء، عن ابن عباس - رضي الله عنهما.